الفصل الثاني
البلاد العربية في العهد العثماني
١٥١٦-١٩١٨م

أولاً- التوسع العثماني في البلاد العربية:

بعد سقوط مدينة القسطنطينية بيد العثمانيين عام١٤٥٣م واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية باسم (استانبول) أي مدينة الإسلام حدث تغيير في ستراتيجية الدولة العثمانية فتوقفت الفتوحات باتجاه أوربا واتجهت نحو البلاد العربية نتيجة لعاملين هما ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس، والاستعمار الأوربي الحديث ممثلاً بأسبانيا والبرتغال.

بعد تولي سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) السلطة في الدولة العثمانية قرر محاربة الشاه إسماعيل الصفوي (١٤٨٧-١٥٢٤م) والقضاء على دولته فتولى قيادة الجيش بنفسه، واتجه في ربيع عام ١٥١٤م صوب الشرق وعند وادي جالديران قرب تبريز التحم الجيشان في معركة عرفت باسم معركة جالديران، استطاع فيها السلطان سليم الأول احتلال تبريز عاصمة الدولة الصفوية، وكانت هذه المعركة بداية للصراع العثماني- الصفوي.

السلطان سليم الاول

السيطرة العثمانية على بلاد الشام ومصر

بعد الانتصار في جالديران وبحجة معاقبة الإمارات التي وقفت مع الشاه إسماعيل اتجه العثمانيون نحو بلاد الشام وهاجموا إمارة (ذو القدر)، وهي إمارة تركمانية صغيرة عاصمتها مرعش وتقع على حدود بلاد الشام بحجة عرقلتها سير جيش السلطان سليم الاول أثناء تقدمه لمحاربة الصفويين وتحالفها مع دولة المماليك التي تحكم بلاد الشام وحدثت المعركة الحاسمة بين العثمانيين والمماليك في سهل مرج دابق بالقرب من مدينة حلب في شهر آب ١٥١٦م، واستطاع العثمانيون من تحقيق الانتصار على المماليك وقتل السلطان المملوكي في هذه المعركة.

فتحت معركة مرج دابق الطريق أمام السلطان سليم لأحتلال بلاد الشام، فاحتل حلب ودمشق وطرابلس وصفد والكرك، واعتقد السلطان بأن معركة مرج دابق ستؤدي إلى انهيار دولة المماليك وسقوطها نهائياً في قبضته، فعرض على سلطان المماليك الاعتراف بالخضوع للسيطرة العثمانية في مقابل الاحتفاظ بمنصب حاكم مصر، لكنه رفض ذلك وأصر على المقاومة.

قرر السلطان سليم الزحف من بلاد الشام لاحتلال مصر، ووصل إلى شواطئ النيل في مطلع عام١٥١٧م، وقد حاول المماليك تجميع قواهم وأقاموا خطاً دفاعياً عند الصالحية لعرقلة الزحف العثماني، إلا أن العثمانيين تجنبوا هذا الخط الدفاعي ودخلوا الدلتا حتى بلبيس، وفي مشارف القاهرة عند الريدانية حدثت المعركة الحاسمة الثانية في حياة الدولة المملوكية في كانون الثاني ١٥١٧م انتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مدينة القاهرة بعد انتصارهم في معركة الريدانية حيث اعدم السلطان المملوكي طومان باي .

بقي السلطان سليم في مصر بضعة شهور لدراسة أحوالها وتنظيم إدارتها، واستفاد من بعض أمراء المماليك، واسند إليهم بعض المناصب الإدارية، وشكل مجلساً إدارياً باسم ديوان الباشا مهمته تنحصر في مساعدة الوالي في شؤون الإدارة والحكم ثم تطورت وأصبحت تشمل منع الوالي من إساءة استعمال سلطته.

خضوع الحجاز واليمن للعثمانيين

كان من الطبيعي بعد سقوط دولة المماليك في يد العثمانيين ان يتبع ذلك انضمام الحجاز للدولة العثمانية وذلك لأن المماليك كانوا أصحاب السيادة عليه. وقد أعلن شريف مكة ولاءه للسلطان العثماني بعد أن وصله فرمان منح الأمان. وقد أرسل الشريف وفداً إلى القاهرة برئاسة ابنه الكبير ليقدم فروض الولاء للسلطان العثماني، وتسليم مفاتيح الكعبة المشرفة وبعض الآثار النبوية الشريفة إقراراً له بالسيادة على الحجاز. وقد أعلن السلطان سليم نفسه خادماً للحرمين الشريفين. وهكذا دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولاً سلمياً.

أما اليمن فقد كان واضحاً بعد سقوط دولة المماليك خضوعها للعثمانيين. فقد أرسل حاكمها وفداً لتقديم فروض الولاء للسلطان العثماني الذي وافق على إبقائه في منصبه. إلا أن الصراعات الداخلية من ناحية، والتهديد البرتغالي من ناحية أخرى أديا إلى عدم استقرار الأوضاع السياسية في اليمن. فقررت الحكومة العثمانية إرسال حملة عسكرية كبيرة عام ١٥٣٨م ضمت (٢٠) ألف شخص مع (٧٤) سفينة مجهزة بالمدافع لاحتلال عدن. كما احتلوا تعز عام ١٥٤٥م، وصنعاء عام ١٥٤٧م.

امتداد السيطرة العثمانية إلى بلدان المغرب العربي

يعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام١٤٩٢م، واخراج العرب من آخر معاقلهم في بلاد الأندلس، نقطة تحول في تاريخ بلدان المغرب العربي ودوله. فالعرب المسلمون اضطروا بعد أن سقطت معاقلهم الواحدة بعد الأخرى في أيدي الجنود الأسبان إلى الاختيار بين القتل والتعميد. فأسرع عدد منهم إلى الخروج من الأندلس بما تمكن من حمله ملتجأ إلى موانئ شمال أفريقيا. وكانت خطة الأسبان تهدف إلى القضاء نهائياً على السكان المدنيين وأبادتهم، وتطويق بلدان المغرب العـــربي واحتلال موانئها المطلة على البحر المتوسط، ومن ثم احتلال أقاليم أفريقيا الواقعة إلى جنوبه، والسعي إلى تحويلها جميعاً إلى المسيحية.

أخذ البرتغاليون ثم الأسبان بالعمل على تنفيذ هذه الخطة. فاحتل البرتغاليون سبته، واحتل الأسبان مليلة والمرسى الكبير وهجموا على وهران، وإزاء اشتداد الصراع تطلعت

أنظار أبناء المغرب العربي إلى قادة متمرسين في القتال البحري للدفاع عن أنفسهم وموانئهم وتجارتهم فبرز آل باربا روسا في المقاومة البحرية. وفي الطليعة منهم بابا عروج الذي جعل من جزيرة جربة في تونس مركزاً له منذ عام١٥١٣م وبدأ بالتصدي للسفن الأسبانية والفرنسية والإنكليزية بكل شجاعة واقتدار الأمر الذي دفع مدينة الجزائر إلى طلب مساعدته لإخراج الأسبان. فخاض سلسلة من المعارك تمكن فيها من تحرير مدن الجزائر وتلمسان ووجدة ونبدة. وقتل أثناء الدفاع عن مدينة تلمسان.

خير الدين باربا روسا
اغتيل عام ١٥٤٦م

بعد وفاة عروج تسلم القيادة أخيه خير الدين باربا روسا الذي اتصف بالشجاعة والإقدام والحنكة السياسية وحسن التصرف وهدوء الأعصاب. فأدرك بأنه بحاجة إلى دولة قوية تحميه ويستند عليها في أوقات الشدة والضيق. فأرسل رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول يعرض عليه خضوعه وتبعيته له وطالباً منه المساعدة ومد يد العون. فسرَّ السلطان سليم بعرض خير الدين ووجد فيه توسيعاً للدولة العثمانية وتأميناً لحدود مصر الغربية. وفي الوقت نفسه أصبح خير الدين أكبر من مجرد أمير بحر. فقد أصبح رئيساً لدولة متحدة مع الدولة العثمانية.

أما تونس فقد وقعت تحت حكم العثمانيين في عام١٥٧٣م بعد أن استطاعوا طرد الأسبان منها. ووضع القائد العثماني سنان باشا أسس النظام الإداري العثماني في تونس. وكان

على رأس هذا النظام حاكم مدني يلقب بالباشا يمثل السلطان العثماني يساعده ديوان استشاري مكون من ضباط عسكريين، وموظف يدير الشؤون المالية يلقب بـ(الباي) وقائد يلقب بالأغا يتبعه ضباط للفرق العسكرية برتبة رئيس، كل منهم يلقب بالداي، ولم يلبث الدايات أن استأثروا بالحكم دون الوالي لمدة (٥٠) عاماً، حيث ظهرت سلطة أخرى هي سلطة الباي.

كان البايات يحكمون تونس حكماً مستقلاً عن الدولة العثمانية، ولكن كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين لها من الناحية الروحية على أساس ان العالم الإسلامي وطن واحد. وحكمت من البايات أسرتان هما الأسرة المرادية والأسرة الحسينية حتى قيام الجمهورية في تونس ١٥ تموز ١٩٥٧م.

أما في ليبيا فقد نجح العثمانيون في السيطرة عليها عام١٥٥١م بعد احتلال طرابلس الغرب وبرقة وفزان وشمل الحكم العثماني كافة أجزاء ليبيا الحديثة. وكان يتولى شؤونها باشا يعينه السلطان العثماني تسانده نخبة من العسكريين يشكلون مجلساً استشارياً (ديوان)، ومنح السلطان هذا المجلس سلطة تصريف الأمور كالضرائب والشؤون الخارجية، ولكن سرعان ما ضعفت سيطرة العثمانيين على ليبيا نتيجة للصراع الداخلي والهجمات الأوربية البحرية الأمر الذي أدى إلى عدم الاستقرار السياسي فيها.

ثانياً- السمات العامة للأوضاع في البلدان العربية:

لم تختلف السمات العامة للأوضاع السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، عن تلك التي كانت سائدة في العراق والتي سبق تناولها في الفصل الأول لأن نظام الحكم وهيكلية مؤسساته وطبيعة مجتمعه تكاد تكون واحدة، ولا تختلف من ولاية إلى اخرى إلا في بعض التفاصيل الصغيرة، ونستطيع أن نجمل هذه السمات بالأمور التالية:

١- السياسة الجائرة التي اتبعت في الولايات والأقاليم العربية، والتي ارتبطت مركزياً بالسلطان العثماني، ولاسيما بعد وصول عدد من السلاطين الضعفاء الذين انعكس ضعفهم على إدارة الدولة المترامية الأطراف.

٢- سوء تطبيق نظام الالتزام الذي سبب خللاً كبيراً في اقتصاديات الدولة العثمانية

والأقاليم التابعة لها وألحق التفكك نتيجة لممارسات الملتزمين السيئة. ففي مصر مورست أسوء أساليب الإدارة التي انتشرت فيها الرشوة والاحتكارات والمضاربات. وفي بلاد الشام ساءت أوضاع السوق والحركة التجارية نتيجة تفاقم الصراعات المحلية والنزاعات الإقليمية على يد الزعامات العسكرية.

٣- المشكلات التي خلفتها الفئات العسكرية العثمانية. كالانكشارية مثلاً الذين وطنتهم الدولة في العديد من المدن والحواضر العربية الكبيرة فكانوا مثاراً للقلق والانقسام. والنزاعات المحلية كتلك التي شهدتها حلب وديار بكر وبغداد والجزائر (التي ظهرت فيها فئة من السكان تدعى بـ(الكراغلة) المنحدرة من آباء انكشاريين وأمهات جزائريات أو ليبيات).

٤- غلبة الصراعات الخارجية والتهديدات ضد الدولة العثمانية وممتلكاتها. سواء من خلال البحر أو البر. ولاسيما في الشمال الأفريقي حيث تعرضت الجزائر وتونس وليبيا إلى تهديدات القرصنة الأوربية ولاسيما المناطق الساحلية.

٥- سلسلة الكوارث المأساوية في الكثير من البيئات والأقاليم العربية. فندرة سقوط الأمطار ومهاجمة الجراد للزرع أديا إلى انعدام الإنتاج أو قلته فارتفعت أسعار المواد الغذائية. وحدثت المجاعة ومات البشر من شدة الجوع بالمئات. مما أدى إلى انتشار الأوبئة والطواعين التي فتكت بالمدن فتكاً شديداً.

٦- اما المغرب الاقصى (مراكش) لم يخضع للسيطرة العثمانية بل بقي مستقلاً عنها.

ثالثاً- محمد علي باشا وبناء مصر الحديثة

بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر. وانسحاب القوات الفرنسية والبريطانية حدث صراع دموي بين العثمانيين والمماليك بين سنتي (١٨٠٢-١٨٠٤م) هيأ الفرصة لقائد الباني شاب للسيطرة على الأوضاع هو محمد علي الذي كان أحد أفراد الوحدة الألبانية في مصر التي كانت في عداد الجيش العثماني.

ولد محمد علي عام١٧٦٩م في مدينة قوله بإقليم مقدونيا. وعاش طفولته يتيماً. واشتغل في تجارة التبغ. وعندما بلغ الثلاثين من العمر التحق بكتيبة البانية وأظهر في الجيش موهبة وشجاعة حتى أصبح قائداً للكتيبة التي دخلت في عداد القوات العثمانية المرسلة إلى مصر. استثمر محمد علي التناقضات والانقسامات والصراعات الداخلية. واستياء الشعب من سياسة المماليك الجائرة التي أدت إلى أنتفاضة الشعب

المصري بقيادة شيوخ الأزهر، وحدوث حرب شوارع فأعلن محمد علي انضمامه إلى الانتفاضة موجهاً قواته لمحاربة المماليك.

حصل محمد علي التأييد من قبل شيوخ الأزهر ونقيب الأشراف عمر مكرم (١٧٥٠-١٨٢٢م) وقرروا اختياره والياً في ١٣ مايس ١٨٠٥م. وكانت المهمة الآنية له ملاحقة المماليك للقضاء عليهم والعمل على إحلال الأمن والنظام، ثم مقاومة البريطانيين الذين انزلوا قواتهم في الإسكندرية عام١٨٠٧م، فتصدى لهم واضطرهم إلى الانسحاب، مما دعا قائد القوات البريطانية إلى طلب الصلح، فزادت شعبية محمد علي وعدّ بطلاً وطنياً دافع عن أرض مصر ضد الأجانب، الأمر الذي سهل له مطاردة المماليك والقضاء عليهم في مذبحة القاهرة عام١٨١١م.

محمد علي باشا
١٧٦٩-١٨٤٩م

لم يتخلص محمد علي من المماليك فحسب، بل استطاع يوماً بعد آخر من التخلص من نفوذ المشايخ وعلماء الدين ونقيب الأشراف عمر مكرم لأنه أدرك خطرهم على انفراده بالسلطة، ولم يسلم منه حتى الجنود الألبان الذين كانوا يميلون نحو السكان، بحجة خروجهم عن الضبط العسكري. وهكذا استمر محمد علي باشا في الحكم أكثر من أربعين عاماً استطاع خلالها من تغيير واقع مصر وتطويرها لتؤدي دورها السياسي في الحياة الدولية والإقليمية وفي الحياة العربية.

إصلاحات محمد علي باشا:

١- بناء المؤسسة العسكرية: أولى محمد علي الجيش أهمية كبيرة لأنه الدعامة في بناء دولته الحديثة. فقام بتطوير الجيش البري وتقوية الأسطول البحري. وإدخال الأسلحة الحديثة، والاستفادة من الخبرات الأوربية في التدريب، ولاسيما الفرنسية. واهتم بمدارس المشاة والخيالة والمدفعية، وإنشاء كلية عسكرية وأكاديمية للأركان العامة، وأسس عدداً من المصانع الحربية للمدافع والبنادق والمتفجرات، واشترى عدداً من السفن الحربية.

وعليه اتسع حجم الجيش المصري في عهده اتساعاً كبيراً فبلغ ١٨٠ ألف جندي نظامي وحوالي ٤٠ ألف مقاتل من القوات غير النظامية، وبلغ عدد السفن البحرية ٥٠ قطعة بحرية، إضافة إلى تشييد عدد كبير من القلاع والحصون والثكنات والمعسكرات.

٢- تحديث الحياة الإدارية بمصر: استطاع محمد علي ان يرسي قاعدة راسخة للإدارة المصرية في العصر الحديث، وان تسيطر حكومته على كامل التراب المصري، فانشأ مجلساً للحكومة اسماه (الديوان العالي) يضم عدداً من (نظار) مديري الدواوين وكبار رجال مصر واثنين من العلماء يختارهم شيخ الأزهر فضلاً عن اثنين من التجار يختارهم كبير تجار القاهرة، واصدر أول دستور في تاريخ مصر الحديث (القانون الأساسي) وتعيين التشكيلة الحكومية التنفيذية بسبعة دواوين (وزارات) هي : ديوان الخديوي (الداخلية) والايرادات (المالية) والجهادية (الحربية) والبحر (البحرية) والمدارس العامة (التربية) والتجارة والفابريقات (الصناعة، الزراعة). وسعى محمد علي إلى تنظيم الإدارة فاستحدث مصطلح المديرية (المحافظة الآن) والمدير الذي ينفذ أوامر الباشا في مديريته، ورئيس المركز الذي يشرف على القصبات والقرى، والحكمدار الذي يعد حاكماً عسكرياً ومدنياً في الأقاليم التي تستولي عليها مصر من غير أراضيها. وقسم مصر إلى أقاليم عدة (سبع مديريات) يترأس كل وحدة منها مدير، وتقسم المديرية إلى مراكز يترأس كل منها مأمور. أما الوحدات الإدارية الأصغر فيطلق عليها ناحية ويترأسها الناظر، والناحية تتكون من وحدات أصغر هي القرى وعلى رأس كل قرية الشيخ أو العمدة.

٣- تطوير التعليم والمدارس على النمط الحديث: أولى محمد علي التعليم والمدارس اهتماماً استثنائياً لأنهما الأداة لتحديث وتطوير المجتمع، فأصبح التعليم مجانياً،

بل كان يكافئ الطلبة والتلاميذ بمكافآت شهرية. وتوسع محمد علي في التعليم العالي فأنشأ مدرسة للهندسة عام١٨١٦م ومدرسة للطب عام١٨٢٧م. وأعقبها تأسيس مدارس للصيدلة والألسن (اللغات) والصنائع والزراعة والبيطرة. وكانت المناهج الدراسية المتبعة هي مناهج عصرية تتفق وطبيعة الحياة العلمية والفكرية التي كانت أوربا تعيشها.

أولى محمد علي اهتمامه بالبعثات العلمية التي ارسلها إلى دول أوربا المختلفة منذ عام١٨١٣م. وكان للبعثات دور كبير في انتشار الاستنارة والوعي وتنوير الأذهان. وبلغ عدد طلبة البعثات في المدة ١٨١٣-١٨٤٠م إلى دول أوربا الغربية (٣١٩) طالباً. وضمت البعثة الأولى فئة من طلبة الأزهر كان من بينهم رفاعة رافع الطهطاوي. الذي أصبح له دوره الفعال في بشائر النهضة الفكرية المصرية بعد رجوعه من فرنسا.

رفاعه رافع الطهطاوي
١٨٠١-١٨٧٣م

وفي الاتجاه نفسه أنشأ محمد علي عام ١٨٢٢م ولأول مرة في تاريخ مصر داراً للطباعة في بولاق بدأت بطبع الكتب باللغات العربية والتركية والفارسية. وصدرت في عهده أول جريدة مصرية وعربية في آن واحد هي جريدة (الوقائع المصرية).

والخلاصة فقد نجح محمد علي في بناء مؤسسات تربوية وتعليمية حديثة متخذاً من فرنسا مثالاً للرقي والازدهار .

٤- الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية: أولى محمد علي مسألة الأرض اهتمامه الأساسي لأنها عصب الحياة الاقتصادية، فقام أولاً بمصادرة أملاك الملتزمين الذين امتنعوا عن دفع الضرائب، ثم وضع يده على جميع الأراضي التي كانت في حوزة المماليك، وفي عام١٨١٤م ألغى نظام الالتزام بكامله بشكل قطعي وصار الفلاحون يدفعون الضرائب إلى الدولة مباشرة. وأعاد توزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين، فأعطى كلا منهم خمسة أفدنة لاستثمارها وللدولة حق استرجاعها إذا عجز الفلاح عن استغلالها استغلالاً أمثل، أو عجز عن دفع الضرائب المترتبة عليها.

لتطوير الزراعة وزيادة غلة الأرض المزروعة أنشأ ديواناً (وزارة) للزراعة عام١٨١٥م، وأصلح الأرض، وحفر أكثر من ألف ترعة وساقية وزرع أشجاراً ونباتات جديدة، وأدخل زراعة المحاصيل الستراتيجية المدرة للعملات الأجنبية مثل القطن.

أما في مجال الصناعة فقد شيدت بعض المعامل لصب الحديد والحدادة، ومصانع للأسلحة، وللسكر والألبان والأنسجة، ولا شك أن التطورات في ميداني الزراعة والصناعة انعكست آثارها الإيجابية على مختلف الشرائح الاجتماعية، وطبيعة التعامل بين الحكومة والشعب، وحدث تطور في البنية الاجتماعية نتيجة التعامل مع الآلات والأدوات الحديثة.

حروب محمد علي باشا وعلاقاته الخارجية:

١- حروبه ضد الوهابيين في شبه الجزيرة العربية:

كانت حروب محمد علي في شبه الجزيرة العربية هي أول حرب خارجية يخوضها جيشه ضد الوهابيين الذين مثلوا خطراً كبيراً للدولة العثمانية عندما بدأوا بمهاجمة القوافل والمدن على حوافي الصحاري السورية-العراقية، ولما لم تستطع الدولة العثمانية من مواجهة خطر الوهابيين فقد عهدت بهذه المهمة عام١٨١١م إلى محمد علي باشا والي مصر. وقد رحب محمد علي بهذه المهمة بهدف السيطرة على التجارة، والاستيلاء على خطوط المواصلات وحركة القوافل.

شكل محمد علي جيشاً وعين ابنه طوسون قائداً عاماً له، واستطاع هذا الجيش من احتلال مدن ينبع والمدينة المنورة ومكة المكرمة، وبذلك تم الاستيلاء على الحجاز بعد أن وصل محمد علي على رأس جيش إلى جدة في عام ١٨١٣م والحقت قواته هزيمة

نكراء بالوهابيين، ووصلت قوات محمد علي إلى حدود اليمن، واضطر الوهابيون إلى عقد الهدنة معه عام ١٨١٥م والاعتراف بالتبعية للسلطان العثماني، والخضوع للوالي المصري في المدينة المنورة ، والتعهد بتأمين سلامة الحجاج، وإعادة الأموال المنهوبة من مكة المكرمة، والتخلي عن الأفكار الدينية السلفية.

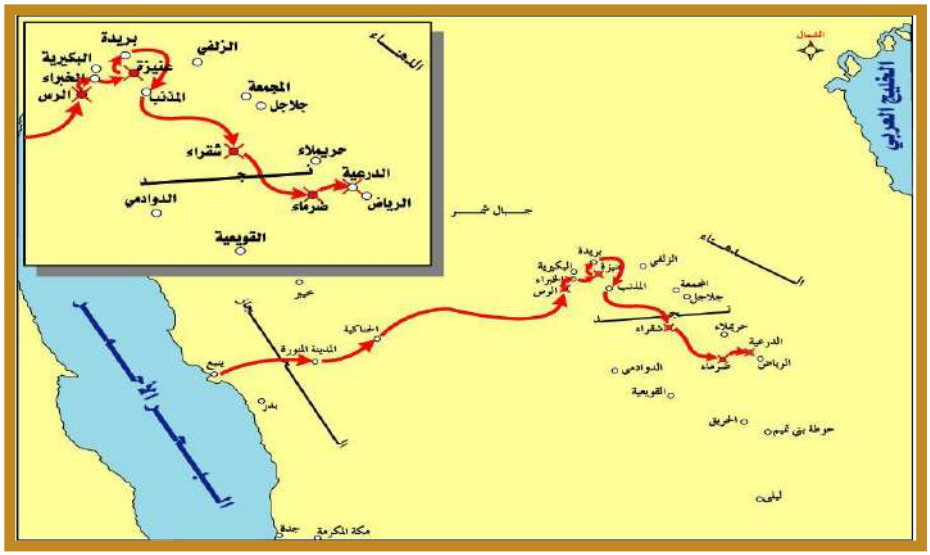

خريطة حروب محمد علي باشا في الحجاز

وسرعان ما خرق الوهابيون الهدنة، فأرسل محمد علي جيشاً جديداً بقيادة ابنه الأكبر إبراهيم باشا الذي استطاع محاصرة الدرعية عاصمة الوهابيين على مدى خمسة شهور حتى سقطت في أيلول ١٨١٨م. وبعد ذلك تقدمت القوات المصرية باتجاه القطيف والبحرين ووصلت إلى سواحل الخليج العربي.

٢- التوسع باتجاه السودان:

كانت حملة محمد علي باشا على السودان بقيادة ابنه إسماعيل باشا ثاني حملة كبرى في عهده، بدأت عام ١٨٢٠م ووصلت إلى رأس الخرطوم، ثم واصلت التقدم إلى أعماق مجرى نهر النيل الأزرق، واستولى المصريون على كامل التراب السوداني وامتدوا نحو الجنوب وسيطروا على مينائي سواكن ومصوع على البحر الأحمر، وخضعت خيرات السودان لسيطرة محمد علي.

٣- المشاركة في الحرب على اليونان:

انطلقت الثورة في إقليم المورة (اليونان) ضد الدولة العثمانية وامتدت إلى جزر عثمانية أخرى، مثل كريت وقبرص، فطلب السلطان العثماني مساعدته في القضاء على الثورة، فأرسل محمد علي في عام١٨٢٢م قوة عسكرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا، ولكن تدخل الدول الأوربية لمساندة الثورة أدى إلى خسارة الدولة العثمانية ومحمد علي باشا في معركة نافارينو في تشرين الأول ١٨٢٧م، واضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف باستقلال اليونان.

٤- التوسع باتجاه بلاد الشام:

قاد إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨م) الحملة المصرية على بلاد الشام في عام١٨٣١م فاحتل جيشه غزة ويافا وحيفا دون مقاومة شديدة، ثم حاصر عكا واحتلها، وتوغلت قواته نحو العمق السوري واشتبكت مع العثمانيين في معركة كبيرة في تموز ١٨٣٢ م قرب حمص ودحرتهم، ثم استولت على مدينتي حماة وحلب، وبهذا سيطر محمد علي على بلاد الشام كاملة.

نصب محمد علي ابنه إبراهيم باشا حاكماً لسورية للمدة (١٨٣٢-١٨٤٠م) وبعد توطيد السلطة المركزية بدأ إبراهيم باشا بالتنظيم الإداري لبلاد الشام على النسق المصري، فقسمت سوريا إلى ست مديريات. وتولى إبراهيم باشا نفسه مهام السلطة القضائية. وأجرى إصلاحات في حقول التعليم والثقافة، وأسس داراً للطباعة في لبنان. وأجرى تغييرات في البنية الاقتصادية، فحدد الضرائب، وأوقف الابتزازات الإقطاعية التعسفية، وألغى الضرائب على الأراضي البكر عند زراعتها، واستطاع أن يوسع كثيراً في تطوير التصنيع والتجارة، فساد الأمن وازدهرت الأسواق بالبضائع.

توترت العلاقات بين محمد علي والدولة العثمانية، واتسعت شقة الخلاف بين الطرفين، واصطفت الدول الأوربية إلى جانب الدولة العثمانية لأنها وجدت في بروز محمد علي عائقاً في فرض سيطرتها الاقتصادية في منطقة شرقي البحر المتوسط، وتجددت الحرب بين إبراهيم باشا والدولة العثمانية عام ١٨٣٩م ونشبت معركة كبيرة بين الطرفين قرب مدينة

نصيبين، فاندحرت القوات العثمانية وانفتح الطريق أمام إبراهيم باشا نحو استانبول. أسرعت الدول الأوربية إلى أجراء مباحثات لقطع الطريق أمام إبراهيم باشا، واتفقت في تموز ١٨٤٠م على توقيع معاهدة لندن من قبل بريطانيا والنمسا وروسيا والدولة العثمانية. وضمت البنود التالية:

١- تسلم مقاليد مصر بيد محمد علي ملكاً وراثياً.

٢- تناط فلسطين (ولاية عكا) بإدارته ملكاً عليها مدى الحياة.

٣- إعادة جميع الممتلكات الأخرى التي استحوذ عليها إلى السلطان العثماني.

٤- في حالة عدم موافقة محمد علي على هذه الشروط خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر لوحدها فقط.

٥- وان لم يوافق خلال عشرين يوماً على الشروط تلك عند ذاك يبدأ العمل على عزله بجهود مشتركة للحلفاء الأوربيين مع العثمانيين.

ماطل محمد علي في البداية في قبول المعاهدة، لكنه اضطر تحت التهديد باستخدام السلاح إلى القبول بها، واحتفظ بمصر والسودان فقط وأعاد ممتلكاته إلى السلطان العثماني، وقلص جيشه إلى (١٨) ألف جندي، وحرم حق تعيين الجنرالات في جيشه، ومن حق بناء السفن الحربية، واعترف بتبعيته للسلطان العثماني، وتعهد بدفع مبالغ كبيرة إلى الخزينة العثمانية.

رابعاً- النهضة العربية وأبرز مفكريها:

شهد منتصف القرن التاسع عشر نهضة فكرية شملت مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، أخذ صداها يترك آثاراً واضحة على الحياة السياسية، ولعل ذلك يعود إلى ما أحدثته التنظيمات العثمانية من تغييرات في الواقع الاقتصادي والاجتماعي، فمن الناحية الاقتصادية شجعت التنظيمات على فتح أبواب الولايات العربية أمام النشاطات التجارية الأوربية والارتباط بالرأسمال العالمي عن طريق فتح المصارف والشركات الأجنبية في مجالي التصدير والاستيراد الأمر الذي ساعد على ظهور طبقة تجارية جديدة أرادت ان تثبت وجودها من خلال السلطة السياسية.

ومن الناحية الاجتماعية ظهرت نخبة مثقفة من أبناء العوائل الكبيرة ومن البيوتات التجارية المعروفة دفعت المجتمع باتجاه التطور على مختلف الصعد، وهيأت الأرضية اللازمة للنهضة العربية التي ساعدت العوامل التالية في نموها ونضوجها وهي:

١- كان للحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م أثرها البالغ في حركة النهضة الفكرية، إذ فتحت أبواب مصر وبلاد الشام على بعض مظاهر التحضر الأوربي الحديث، وكان يرافق الحملة عدد كبير من العلماء الفرنسيين الذين قاموا بإنجاز كثير من المهام العلمية والفنية والتقنية في مصر، منحت جميعها للمصريين أمكانية التفاعل معها ضمن أطر ومجالات متنوعة.

٢- الاتصال الذي حدث بين العرب والغرب بعد الحملة الفرنسية والبعثات العلمية جعلت العرب يطلعون على الكثير من الأفكار والمصطلحات الشائعة في أوربا مثل الحرية والديمقراطية والدستور والوطنية والأمة والقومية.

٣- البعثات التبشيرية التي أخذت تصل بلاد الشام منذ القرن السابع عشر أسهمت في اليقظة الفكرية، فبالرغم من الآثار السلبية التي تركتها تلك البعثات في إيجاد نوع من الولاء للدول الأوربية على حساب المشاعر الوطنية، إلا أن نشاطها في تأسيس المطابع وانتشارها في الولايات العربية يسر طبع الكتب المدرسية والدينية باللغة العربية، حتى صار التعليم باللغة العربية في جميع مدارس البعثات التبشيرية، كما تم تحقيق العديد من الكتب التراثية وتسهيل نشرها في البلاد العربية .

٤- الصحافة العربية التي قامت بدورها الرائد في إيقاظ المشاعر الوطنية وتقريب الأذهان والمواقف الفكرية والسياسية بين أبناء الولايات العربية، وإيجاد رأي عام موحد يدعو إلى الحرية والاستقلال. ومن بين هذه الصحف الوقائع المصرية عام١٨٢٨م وحديقة الأخبار البيروتية عام ١٨٥٨م والرائد التونسية عام١٨٦١ م والفرات الحلبية ١٨٦٧م والزوراء البغدادية عام١٨٦٩م .

وبالرغم من تعدد ولاءات الصحف واتجاهاتها إلا أنها أسهمت بنشر الثقافة وأغنت الفكر بطروحاتها وما قدمته من أبحاث ومناقشات أعادت الثقة إلى نفوس العرب ووضعتهم وجهاً لوجه أمام العثمانيين والأوربيين بما يمتلكون من إمكانات لانتزاع حقوقهم.

٥- حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية التي بدأت تتسع منذ مطلع

القرن التاسع عشر وقد اعتمدها محمد علي باشا حاكم مصر أحد أبرز الشروط لتحديث مصر، فأسس مدرسة الألسن في عام ١٨٣٥م بعد أن كانت الترجمة قد بدأت في بلاد الشام، وتولت الجمعيات والمجلات والصحف كالمقتطف والهلال وغيرها ترجمة المزيد من المقالات والأدبيات والأخبار ونشرها بالعربية، فكان لذلك أبلغ الأثر في إطلاع العرب على ثقافة الغربيين وآرائهم وعلومهم ومبادئهم السياسية وإجراءاتهم الاقتصادية وأفكارهم الحرة.

٦- الاستشراق الذي يعد من العوامل الرئيسة في نهضة أوربا العلمية والأدبية والفنية في مطلع العصور الحديثة أصبح له الدور المؤثر في الاهتمام بالفكر والتراث العربي، وقد قام الكثير من المستشرقين برحلات عديدة إلى البلاد العربية وأثاروا بكتاباتهم وآرائهم تفكير المثقفين العرب واهتمامهم بمختلف القضايا الأساسية في الحياة العربية والإسلامية.

٧- ظهور عدد من الجمعيات العلمية والمنتديات الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولاسيما في بلاد الشام كان لها دور بارز وكبير في بلورة النهضة الفكرية العربية من خلال الإقبال على دراسة التراث العربي العلمي والأدبي. وكان في مقدمة الرواد الذين لهم دور متميز في هذا المجال بطرس البستاني وناصيف اليازجي.

من أولى هذه الجمعيات جمعية الآداب والعلوم التي اتخذت من بيروت مقراً لها عام ١٨٤٧م واستمرت في العمل لمدة خمس سنوات أسهمت خلالها في ألقاء محاضرات أسبوعية تتحدث عن تراث العرب العلمي، والجمعية العلمية السورية التي تأسست في عام ١٨٥٧م وضمت عدداً من الأدباء والمثقفين ، فقد بلغ عدد أعضاءها ١٥٠ عضواً. وبالرغم من أن مقر الجمعية في بيروت إلا أن نشاطها لم يقتصر على بلاد الشام فقد ضمت أعضاء من مصر وبعض الأدباء والمثقفين العرب المقيمين في استانبول. ومن أعضاءها البارزين إبراهيم اليازجي الذي واصل رسالة أبيه ناصيف اليازجي في حركة إحياء التراث.

٨- ظهور الكثير من المصلحين والمفكرين السياسيين الذين كان لهم دور رائد في تهيئة القاعدة الفكرية لانطلاقة النهضة، وتمثلت ردود الفعل الأولى لدى المصلحين العرب على مظاهر الضعف والانحلال والفساد بأنها كانت ردوداً دينية سلفية رافقتها

شيوع الكثير من البدع والظلالات وحالة من الجمود الفكري والتقليد الأعمى، وقد رفض المتنورون من المفكرين ذلك وتمثل رد الفعل بظهور تيارين:

الأول يدعو إلى ضرورة الأخذ بمظاهر الحضارة الأوربية لانبهاره بها، وقد مثل هذا التيار في مصر رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) الذي درس في فرنسا وأعجب بمظاهر الحياة فيها.

والثاني يدعو إلى ضرورة الأخذ بعملية بلورة الحضارة العربية الإسلامية وأحياءها لأنها الأقدر من غيرها على معالجة الواقع، ومثل هذا التيار خير الدين التونسي (١٨٢٢-١٨٨٩م) الذي قال: «أن أوربا عندما بدأت نهضتها كانت أسوء حالاً منا، والأمة العربية لها عقليتها واستعدادها وعمق حضارتها ما يمكنها من السير في هذا المجال، إذا أدركت حريتها الكافية، فالحرية والطموح غريزتان عند المسلمين تأصلت فيهم بتعاليم دينهم».

الجمعيات العربية ودورها في تطور حركة النهضة:

١- جمعية بيروت السرية ١٨٧٥م:

تعد هذه الجمعية أول تنظيم سياسي معارض للحكم العثماني، دعا في منهاجه السياسي إلى الاصلاح، واستقطبت الجمعية الكثير من الشباب وأسست فروعاً لها في مدن دمشق وطرابلس وصيدا. وحددت الجمعية أهدافها بما يلي:

١- منح الاستقلال لسوريا بعد توحيدها مع لبنان.

٢- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

٣- إلغاء الرقابة على الصحف، والقيود المفروضة على حرية التعبير والنشر.

٤- استخدام القوات العربية المجندة في الخدمة العسكرية ضمن حدود الولايات العربية.

وبالرغم من السياسة الإرهابية التي اتبعها السلطان عبد الحميد الثاني إلا أن النشاط السياسي استمر حتى عام ١٨٨٢م وبعد توقف نشاط الجمعية انتقل مؤسسوها إلى القاهرة وأسسوا فيها جريدة سياسية يومية أسمها (المقطم)، ومجلة فكرية أسمها (المقتطف).

وفي الاتجاه نفسه تأسست في بيروت جمعية حقوق الملة العربية من قبل مجموعة من المثقفين. وأسست في القاهرة في عام ١٨٩٧م جمعية الشورى من قبل مجموعة من الزعماء والمفكرين العرب من بينهم محمد رشيد رضا ورفيق العظم هدفها معارضة استبداد السلطان عبد الحميد الثاني والدعوة إلى إقامة حكومة نيابية.

٢- جمعية الإخاء العربي العثماني:

بعد انقلاب عام ١٩٠٨م الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني في السنة التالية أعلن أهدافه في إعادة العمل بالدستور وإطلاق حرية التعبير والصحافة والاجتماعات وإلغاء الرقابة وغيرها، قوبل الانقلاب بالتأييد، وسارعت النخب العربية المثقفة إلى تأسيس جمعية في استانبول باسم (جمعية الإخاء العربي العثماني) التي فتحت لها فروعاً في مختلف الولايات العربية، وأصدرت صحيفة لنشر أفكارها والدعوة إليها، ومن بين تلك الأهداف «حماية الدستور المساواة بين العرب والأتراك في الحقوق والواجبات وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية والحفاظ على التراث والعادات والتقاليد العربية».

أثار نشاط الجمعية الاتحاديين الذين سيطروا على السلطة العثمانية بعد خلع السلطان عبد الحميد، ووجدوا فيها خطراً على سياستهم المستقبلية فقاموا بإغلاق الجمعية وصحيفتها بحجة ان أعضائها من مثيري الاضطرابات.

٣- جمعية المنتدى الأدبي:

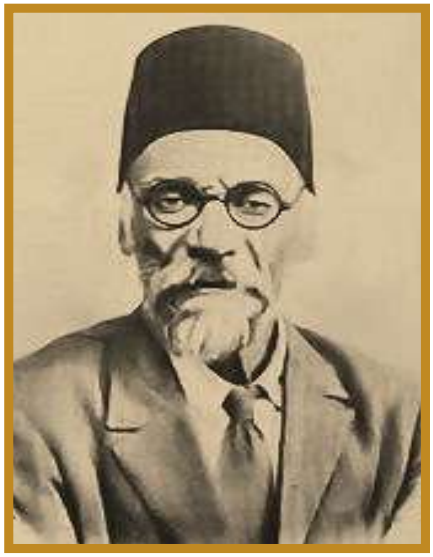

جميل صدقي الزهاوي
١٨٦٣-١٩٣٦م

دفعت سياسة الاتحاديين العرب إلى التوفيق بين العمل السياسي السري والعلني خشية البطش والإرهاب، وظهرت جمعيات هدفها المعلن ثقافي واجتماعي، وهدفها المخفي سياسي يهدف إلى الحرية والاستقلال الذاتي. وفي هذا الاتجاه أسست جمعية المنتدى الأدبي في عام ١٩٠٩م وتضمن منهاجها الاهتمام بالشؤون الأدبية والثقافية من خلال تمثيل الروايات التاريخية وإلقاء القصائد والأناشيد التي تسهم في زيادة الوعي السياسي وتقوية الروابط بين العرب.

أصدرت الجمعية مجلة أدبية باسم (لسان العرب) وفتحت لها فروعاً في سوريا ولبنان والعراق، وبرز من أعضائها في العراق طالب النقيب (١٨٦٢-١٩٢٩م) وأحمد عزت الأعظمي وجميل صدقي الزهاوي وعلي الجميل وحبيب العبيدي. وبقي المنتدى يعمل بقوة ونشاط حتى عام ١٩١٥م عندما أغلقته سلطات الاتحاديين.

٤- الجمعية القحطانية:

تأسست هذه الجمعية السياسية السرية في أستانبول عام ١٩٠٩م بزعامة عزيز علي المصري (١٨٨٠-١٩٦٤م) تعمل بموازاة مع الجمعية العلنية المنتدى الأدبي، وهي أول جمعية أسهم في تأسيسها معاً المثقفون المدنيون والضباط العسكريون. ومن أبرز أهدافها الدعوة إلى تحويل الدولة العثمانية إلى دولة اتحادية تضم العرب والترك على غرار إمبراطورية النمسا-المجر، وأن تكون الولايات العربية مملكة مستقلة في نطاق الدولة الاتحادية لها كيانها الخاص من حيث البرلمان والحكومة المحلية ولغتها الرسمية هي اللغة العربية.

ظلت هذه الجمعية تمارس نشاطها حتى إعلان الحرب العالمية الأولى عندما علم أعضاؤها بكشف أسرارها عن طريق بعض العملاء الذين دستهم السلطات العثمانية فأعلنوا حلها وانظموا إلى جمعيتي العهد والعربية الفتاة.

٥- جمعية العربية الفتاة:

أسست في باريس عام ١٩١١م بصورة سرية من قبل مجموعة من الشباب الذين كانوا يدرسون في باريس، ومن أبرزهم عوني عبد الهادي وجميل مردم ورستم حيدر، وكانوا يهدفون إلى تحرير بلادهم من السيطرة التركية، وكانت من أهم الجمعيات ذات الأهداف السياسية الواضحة فأخذت تدعو إلى الاستقلال الكامل للولايات العربية.

نقل مركز الجمعية عام١٩١٣م إلى بيروت وفي السنة التالية إلى دمشق، وأسهمت بجهد واضح في التمهيد للثورة العربية التي انطلقت من الحجاز عام١٩١٦م، واتصل أعضاؤها بالأمير فيصل بن الشريف حسين عندما كان في دمشق وانتسب إليها وتبنى أفكارها وأخبر والده بأهدافها وسعة نشاطها. وقد أعدم العديد من أعضائها من قبل القائد العثماني جمال باشا السفاح في عامي ١٩١٥-١٩١٦م . وقد بقيت الجمعية سرية حتى النهاية.

٦- حزب اللامركزية الإدارية العثمانية:

اضطر العديد من المثقفين والمفكرين العرب التوجه إلى مصر تخلصاً من الظلم والاضطهاد، وأسسوا في القاهرة عام١٩١٢م حزباً علنياً هو (حزب اللامركزية الإدارية العثمانية) الذي دعا إلى:

١- جعل اللغة العربية لغة معترفاً بها في الدوائر الرسمية واعتمادها في تدريس مختلف العلوم في المدارس والتحدث بها في مجلس المبعوثان إلى جانب اللغة التركية.

٢- استخدام العرب في إدارة الولايات العربية.

٣- جعل الخدمة العسكرية في حدود الأقاليم العربية.

استثمر العرب أوضاع الانفتاح في مصر وعدم معارضة السلطات البريطانية لنشاطهم من أجل الدعوة إلى الإصلاح في البلاد العربية.

٧- جمعية العهد:

تأسست بصورة سرية في ٢٨ تشرين الأول ١٩١٣م على انقاض الجمعية القحطانية إلا أنها اختلفت عنها في كون عضويتها اقتصرت على الضباط العرب العاملين في الجيش العثماني. وبرز في قيادتها الضباط عزيز علي المصري وسليم الجزائري ونوري السعيد وطه الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهم.

نوري السعيد (١٨٨٨-١٩٥٨م)

كان هدف الجمعية تحقيق الاستقلال الداخلي للبلاد العربية على أساس فيدرالي (اتحادي) دون الانفصال عن الدولة كما يذكر نوري السعيد بل كان طموحها يسعى لتشكيل إدارة عربية محلية ولغة عربية رسمية. وشراكة سياسية مع الأتراك وكان للضباط العراقيين دور بارز في الجمعية. فانشأوا فروعاً لها في الموصل وبغداد مطلع عام١٩١٤م.

المؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣م:

توفيق السويدي (١٨٩٢-١٩٦٨م)

قرر قادة الجمعيات الدعوة إلى عقد مؤتمر عام لمناقشة الأوضاع في البلاد العربية والموقف من الدولة العثمانية ، ولأجل توحيد جهود هذه الجمعيات وقع الاختيار على باريس لتكون مكاناً لانعقاد المؤتمر ابتعاداً عن القيود المفروضة عليهم داخل الدولة العثمانية.

عقد المؤتمر في قاعة الجمعية الجغرافية في باريس في يوم ٢٨ حزيران ١٩١٣م واستمر لعدة أيام حضره ممثلون عن الجمعيات العربية. وحضر ممثلان عن العراق هما سليمان عنبر وتوفيق السويدي.

وجرت المناقشات بأجواء من الصراحة والاعتدال بما يؤدي إلى الحصول على الحد الأدنى من الحقوق العربية. وتوصل المؤتمر إلى المقررات التالية:

١- ضمان حقوق العرب السياسية وذلك بإشراكهم فعلياً في الإدارة المركزية للدولة.

٢- اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية. ومعترفاً بها في مجلس المبعوثان (النواب) العثماني.

٣- تشكل كل ولاية عربية إدارة لا مركزية للنظر في شؤونها وحاجاتها. والحقت بالمقررات بعض التوصيات لضمان تنفيذها منها:

أ- إذا لم تنفذ المقررات التي صادق عليها المؤتمر يمتنع أعضاء لجان الإصلاح العربية عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية إلا بموافقة من الجمعيات المنتمين إليها.

ب- ان هذه المقررات ستكون منهاجاً سياسياً للعرب. ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد مسبقاً بتأييد هذا المنهاج وطالب بتنفيذه.

أحدثت هذه المقررات والتوصيات ارتياحاً كبيراً في صفوف العرب وغضباً شديداً من قبل الحكومة العثمانية التي حاولت الإساءة إلى رجال المؤتمر عن طريق المظاهرات والصحافة. وعندما فشلت في ذلك اضطرت إلى قبول التفاوض مع أعضاء المؤتمر

وتوقيع اتفاقية باريس المؤلفة من (١١) مادة، من أهمها:

١- يكون التعليم الابتدائي والإعدادي باللغة العربية في جميع الولايات العربية، على أن يكون التعليم العالي بلغة الأكثرية، في حين يجب أن تدرس اللغة التركية إجبارياً في المدارس الإعدادية.

٢- يؤدي العسكريون العرب خدمتهم داخل الولايات العربية وقت السلم.

٣- يشترك في الحكومة العثمانية المركزية ثلاثة وزراء عرب في الأقل، ويكون في كل وزارة ما بين (٤-٥) من الموظفين الكبار من العرب أيضاً.

٤- يعين خمسة ولاة وعشرة متصرفين من العرب، وكذلك يعين عربيان في مجلس الأعيان العثماني عن كل ولاية عربية.

أصدر السلطان العثماني فرماناً (مرسوماً) في ١٨ آب ١٩١٣م لتنفيذ مقررات مؤتمر باريس، إلا أن هذا المرسوم غير كثيراً من مواد الاتفاقية بحيث طمس معظم معالمها، فتجدد الخلاف في ظروف عالمية وإقليمية، فكانت الحرب العالمية الأولى واتخاذ العرب طريقاً جديداً للحصول على الاستقلال.

خامساً- الحرب العالمية الأولى واتفاقية سايكس ـ بيكو:

العرب والحرب العالمية الأولى:

نشبت الحرب العالمية الأولى في اوربا بتاريخ ٢آب ١٩١٤م بين دول الوسط (المانيا وإمبراطورية النمسا- المجر) من جهة، والحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية) من جهة أخرى، وكان من أهدافها إعادة تقسيم المستعمرات والاستحواذ على مستعمرات جديدة. اتخذت الدولة العثمانية في البداية موقف الحياد بين الطرفين المتحاربين، غير أن ذلك الحياد لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما دخل العثمانيون الحرب إلى جانب المانيا في ٣١ تشرين الاول، وبدخول الدولة العثمانية الحرب أصبحت البلاد العربية في خطر، ولاسيما المشرق العربي نظراً لموقعه الجغرافي والستراتيجي وما تختزنه أرضه من ثروات اقتصادية هائلة.

أما العرب من أعضاء الجمعيات العربية فبدأوا في التحرك لاستثمار ظروف الحرب لتحقيق أهدافهم في الحرية والاستقلال، لكنهم اختلفوا في السياسة التي يجب اتباعها، فبينما رغب البعض في تأسيس دولة عربية مستقلة معتمدين على إمكانياتهم الذاتية، رغب البعض الآخر تحقيق هذا الهدف بمساعدة خارجية، في حين تمسكت فئة

أخرى بالدولة العثمانية خشية من الأطماع الأوربية الاستعمارية.

في خضم هذه الأحداث نشط الشريف حسين بن علي شريف مكة، لاستثمار ظروف الحرب لمصلحته، وبدأ بالاتصال ببريطانيا من جهة وبالجمعيات العربية من جهة أخرى، فقد كلف الشريف ابنه الأمير فيصل بالاتصال بأعضاء جمعيتي العربية الفتاة والعهد السريتين لمعرفة رأيهم ، فوضع هؤلاء مشروعاً للتحالف مع بريطانيا وسلموه إلى فيصل لينقله إلى أبيه، عرف باسم (ميثاق دمشق) نص على:" اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود المرسومة بوضوح تشمل الولايات العربية في آسيا كلها باستثناء عدن. وقد حددت هذه الحدود من مرسين وأدنه إلى زاخو والعمادية شمالاً، وإلى البحر العربي باستثناء عدن جنوباً، والبحر المتوسط والبحر الأحمر غرباً وإلى جبال زاكروس والخليج العربي شرقاً. وإلغاء جميع الامتيازات الأجنبية، وعقد معاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة، مع تقديم الأخيرة لبريطانيا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية التي ستقيمها الدولة المنشودة".

مفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا:

كان الشريف حسين قد اتصل في وقت مبكر، قبل وقوع الحرب العالمية الأولى، وبواسطة ابنه الأمير عبد الله بالبريطانيين، فاتصل باللورد كتشنر (١٨٥٠-١٩١٦م) المعتمد السامي البريطاني في مصر، ورونالد ستورس، السكرتير الشرقي في دار الاعتماد، في شباط١٩١٤م لجس النبض ومعرفة الموقف البريطاني إذا ما قرر الاتحاديون عزل والده بعد توتر العلاقات بينهما وسأله بصراحة عن احتمال مساعدة كتشنر

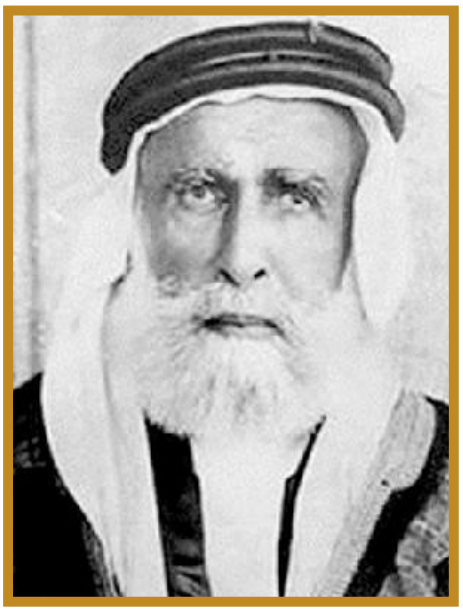

الشريف حسين بن علي (١٨٥٤-١٩٣١م)

لوالده في الحصول على الأسلحة، ولم يحرز عبد الله جواباً شافياً، ومع ان هذه المحادثات كانت غير رسمية ولم تنتهِ إلى نتيجة عملية لكنها كانت في سير الأحداث.

حينما أعلنت الحرب العالمية الأولى في ٢آب ١٩١٤م أسندت إلى اللورد كتشنر وزارة الحربية البريطانية فاستغل مركزه السياسي للتأثير على مجلس الوزراء واقناعه

بالاتصال الرسمي بالعرب والدخول معهم في مشاورات لمعرفة موقفهم في حالة دخول الدولة العثمانية الحرب. وطلب من ستورس الاتصال بالأمير عبد الله لمعرفة موقف الشريف حسين.

كان موقف الشريف حرجاً فقد كان هناك رأيان:

الأول: يرى الوقوف بجانب العثمانيين فيكسب العرب عرفان الدولة العثمانية، وكان الأمير فيصل صاحب هذا الرأي لاقتناعه بوجود خطرين استعماريين في المنطقة العربية من جانب بريطانيا وفرنسا.

والثاني: كان متجاوباً مع قيام الثورة ضد الدولة العثمانية ويمثله الأمير عبد الله، الذي كان يرى ضرورة استمرار الاتصال لمعرفة رأي بريطانيا النهائي عن طريق المفاوضات لضمان استقلال العرب ضماناً كاملاً.

بعد دخول الدولة العثمانية الحرب رسمياً في ٥ تشرين الثاني ١٩١٤م بادرت بريطانيا الاتصال بالعرب، فرد الشريف بأنه يستطيع أن يقود اتباعه إلى الثورة شرط تقديم بريطانيا مساعدة له، فأجابت بريطانيا بأنه في حالة وقوف الشريف معها ضد الدولة العثمانية فأنها تضمن له البقاء في منصب شريف مكة وتقدم له الحماية من كل اعتداء خارجي، ومساعدة العرب على نيل حريتهم، واعتراف بريطانيا بالشريف خليفة في حالة مبايعته بالخلافة.

أدرك الشريف حاجة بريطانيا للتحالف معه فتبلورت مطالبهُ بإقامة دولة عربية كبرى يكون ملكاً عليها استناداً إلى ميثاق دمشق بدلاً من تثبيته بمنصب الشرافة. ومع تطور الأحداث العسكرية ولاسيما بعد الهجوم العثماني الأول في ٣ شباط ١٩١٥م قرر مجلس الوزراء البريطاني تخويل السير هنري مكماهون، المعتمد السامي البريطاني في مصر، أن يفتح باب المفاوضات والاتصالات مع العرب لحثهم على الثورة ضد العثمانيين.

افتتحت ما عرفت باسم (مراسلات حسين-مكماهون) في الرسالة المؤرخة في ١٤ تموز ١٩١٥م وانتهت بالرسالة المؤرخة في ١٠ آذار ١٩١٦م ، وتضمنت هذه المراسلات شروط العرب لدخول الحرب بتنفيذ ميثاق دمشق، وأن هدف العرب الأساسي هو الاستقلال والتحالف مع بريطانيا وتعيين حدود الدولة المقترحة، وقد حاولت بريطانيا في ردودها التنصل من الاعتراف بحدود الدولة، ولكن بعد الانتكاسات الكبيرة التي منيت بها بريطانيا في جبهات الحرب، ولاسيما في العراق أعلنت في رسالتها الأخيرة الموافقة على مطالب

الشريف. وهكذا انهت هذه الرسالة المفاوضات بين العرب والبريطانيين، واتخذ الشريف الترتيبات لإعلان الثورة ضد الدولة العثمانية في وقت كان فيه نجم الحلفاء في أفول.

إعلان الثورة في الحجاز:

أعلن الشريف حسين الثورة في يوم ١٠ حزيران ١٩١٦م ، وبدأ القتال في اليوم الأول للثورة في مكة، وحققت الثورة انتصارات سريعة على القوات العثمانية. تمكنت قوات الثورة من تحرير العديد من المناطق العربية، وانضم إليها الكثير من الضباط العرب، ولاسيما العراقيين الذين تجاوز عددهم الـ(٢٤٠) ضابطاً. وأعلن الشريف حسين نفسه ملكاً على العرب في ٣١ تشرين الأول ١٩١٦م ، وحاول الحصول من الحلفاء على الاعتراف به، إلا أنهم اعترفوا به ملكاً على الحجاز فقط.

استمرت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين في التقدم شمالاً لتحرير بلاد الشام بحدودها الطبيعية، وفي الأول من تشرين الأول ١٩١٨م تمكنت من تحرير دمشق، ثم تقدمت لتحرير حلب، وآخر نقطة وصلها العرب هي محطة المسلمية قبل هدنة مودروس في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨م التي أنهت العمليات العسكرية بين الحلفاء والدولة العثمانية، وبذلك انتهى عهد السيطرة العثمانية على البلاد العربية الذي استمر قرابة أربعة قرون، وبدأت مرحلة جديدة من حياة العرب السياسية. وأصدر الشريف بياناً أوضح فيه دوافع الثورة وأهدافها، وشدد على أهمية الربط بين العروبة والإسلام «لأن قتل العربية قتل للإسلام نفسه» والإسلام دين بذل العرب في سبيل عزته الدماء الغالية والتضحيات الكبيرة، وأن الاتحاديين الذين تسلطوا على الدولة وخرجوا عن الدين والحق وحطموا فكرة الجهاد الإسلامي. وتضمن البيان الأمور التالية:

١- الرفض القاطع لسياسة التتريك ومقاومتها، ورفض واستنكار إدخال العرب في أتون الحرب.

٢- التأكيد على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ودور العرب القيادي في التاريخ، والربط بين العروبة والإسلام.

٣- أن الثورة جاءت رداً على سياسة الاتحاديين وخروجهم عن الدين وعن الرابطة الإسلامية.

٤- أكد البيان على إعلان الاستقلال وإقامة الدولة المستقلة على أسس العدل والمساواة.

اتفاقية سايكس-بيكو:

وجدت بريطانيا منذ بدأ الحرب ان مطامعها في البلاد العربية لابد وان تصطدم بمطامع فرنسا، لاسيما وان هذه المنطقة مقراً لحقول النفط الغنية، لذا بدأت بريطانيا مفاوضاتها مع فرنسا، في الوقت الذي كانت تتفاوض فيه مع الشريف حسين، وتوصلاً في ١٦ مايس ١٩١٦م إلى اتفاقية سميت اتفاقية سايكس-بيكو (نسبة إلى السير مارك سايكس العضو في البرلمان البريطاني والمسيو جورج بيكو القنصل الفرنسي العام في بيروت) بعد مفاوضات سرية كانت تدور بين بريطانيا وفرنسا منذ آذار ١٩١٥م لتقسيم أملاك الدولة العثمانية.

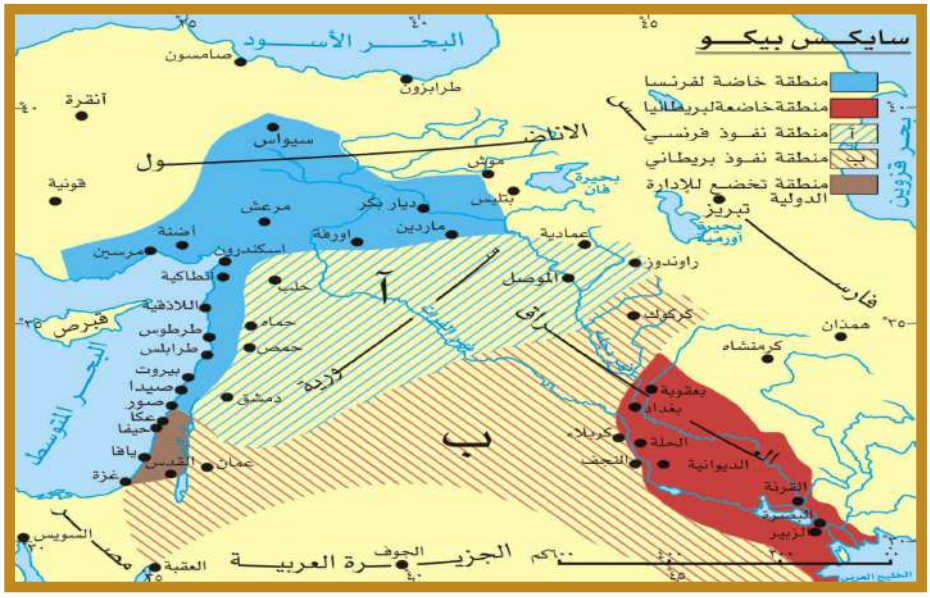

خريطة اتفاقية سايكس - بيكو

تضمنت الاتفاقية أحدى عشرة مادة أهمها:

المادة الأولى: ان فرنسا وبريطانيا مستعدتان ان تعترفا (وتعضدا) دولة عربية مستقلة أو اتحاد من دولة عربية تحت رئاسة زعيم عربي في (أ) داخلية سوريا وحلب وحماة وحمص ودمشق والموصل. و(ب) داخلية العراق. كركوك وشرق الأردن والنقب والعقبة. ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولبريطانيا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية وتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو

اتحاد الحكومات العربية.

المادة الثانية: يخضع الساحل السوري من الاسكندرونة شمالاً حتى صور جنوباً (المنطقة الزرقاء) لحكم فرنسا المباشر. وتخضع ولايتا بغداد والبصرة (المنطقة الحمراء) لحكم بريطانيا المباشر. وتنشيء هاتان الدولتان كل منهما في منطقتها ما ترغبان فيه من أشكال الحكم بالاتفاق مع الحكومة العربية.

المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في فلسطين (المنطقة السمراء) بالاتفاق مع روسيا وبقية الحلفاء وشريف مكة.

المادة الرابعة: تنال بريطانيا مينائي حيفا ويافا.

تعد اتفاقية سايكس- بيكو أبشع صفقة استعمارية في التاريخ الحديث، وصورة مرعبة للمخادعة والمكر. وقد عقدت هذه الاتفاقية على أساس مصالح ومطامح الدول الكبرى دون الاهتمام برغبات سكان المناطق وحقوقهم وتطلعاتهم الوطنية. فالعراق وضع تحت ثلاثة أنواع من الحكم، وسوريا الطبيعية قسمت بحيث تخضع مناطقها إلى خمسة أنواع من الحكم. أما الدولة العربية المستقلة فقد حرمت من الاتصال بالبحر وفرض عليها ان تستعين ببريطانيا في النصف الجنوبي، وان تستعين بفرنسا في النصف الشمالي.

بعض من قوات الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م

اسئلة الفصل الثاني

س١/ عرف ماياتي

١- عام ١٤٥٣م . ٢- معركة الريدانية . ٣- آل باربا روسا. ٤- معاهدة لندن.

٥- جمعية العهد. ٦- مراسلات حسين – مكماهون. ٧- ميثاق دمشق.

س٢/ ما اهم بنود اتفاقية سايكس- بيكو ؟ ولماذا تعد هذة الاتفاقية ابشع صفقة استعمارية في التاريخ الحديث ؟

س٣/ عدد ابرز السمات العامة للاوضاع في البلدان العربية تحت الحكم العثماني .

س٤/ تكلم عن انجازات جمعية العهد في مجال الاصلاح .

س٥/ ما ابرز انجازات محمد علي باشا في مجال تطوير التعليم ؟

س٦/ عدد العوامل التي ساعدت على قيام النهضة العربية في منتصف القرن التاسع عشر .

س٧/ ما ابرز الجمعيات العربية السرية التي ساهمت في تطور حركة النهضة العربية ؟

نشاط

- استعن بمكتبة المدرسة لكتابة بحث حول رواد الجمعيات العربية من العراقيين.
- اجمع صوراً للضباط العراقيين المشاركين في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م وعلقها في جدارية مع كتابة بحث موجز عنها .
- اكتب بحثاً حول ابرز مفكري النهضة العربية .
- يشارك الطلبة بحلقة نقاشية باشراف المدرسة / المدرس لمناقشة اصلاحات محمد علي باشا واثرها في بناء مصر الحديثة .
- يشارك الطلبة برسم خريطة تمثل تقسيمات الدول العربية وفقاً لاتفاقية سايكس - بيكو.

لايجوز استرقاق أو استعباد أي شخص.
ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما.
الاعلان العالمي لحقوق الانسان